المعنى الظاهر والمعنى الباطن عند الحسين الذهبي في التفسير والمفسورن

Muhammad Farid Abdullah
Program Doktor UIN Sunan Kalijaga Yogyakarta
faridstain78@gmail.com
DOI: http://dx.doi.org/10.18326/lisania.v1i1.74-89

Abstract
This is a mini research by using literature review to examine the extent of the thought concept about dzahir and bathin meaning by Husain al Dzahabi and other interpreters and then analyzed by linguistics-semantics. Based on the study, the author concludes that: first, the dialogue of thought about dhahir and bathin meaning has produced various characteristics of Qur'anic interpretation as dynamic and meaningful text. Second, dzahir meaning has a clearer character, and is considered stronger as hujjah, but the bathin meaning can also be accepted scientifically if it is supported by the right dalil or qarinah. Third, both in aqli and naqli, the existence of dzahir and bathin meaning is justified. Fourth, the Qur'anic discourse is the more suitable approach in line with the rules of Qur'anic understanding and the standard of interpretation in Islam.

Keywords*: dzahir meaning, bathin meaning, linguistics-semantics*

Abstrak
Tulisan ini adalah sebuah mini riset yang menggunakan literature review untuk menelisik sejauhmana konsep pemikiran tentang makna *dzahir* dan makna *bathin* oleh Husain al Dzahabi dan para mufasir yang kemudian dianalisis secara linguistik-semantik. Dari penelitian kecil ini, penulis menyimpulkan pertama, dialog pemikiran tentang makna *dzahir* dan *bathin* telah melahirkan berbagai corak penafsiran al quran sebagai teks yang sangat dinamis dan kaya akan makna. Kedua, Makna *dzahir* memiliki sifat yang lebih jelas, dan dianggap lebih kuat sebagai hujjah, namun makna *bathin* juga dapat diterima secara ilmiah dengan catatan harus didukung dengan adanya *dalil* atau *qarinah* yang tepat. Ketiga, baik secara *aqli* maupun *naqli*, keberadaan makna dhahir dan bathin adalah dibenarkan. Keempat, diskursus al quran adalah sebuah pendekatan yang lebih sesuai dengan kaidah pemahaman al quran dan standar penafsiran dalam Islam.

Kata kunci: makna dhahir, makna bathin, linguistik-semantik

مقدمة

القرآن يحتوي على الاحتمالات من معنى لا حصر له. وهو يقدم مجموعة متنوعة من الأفكار والتفسيرات على مستوى سطح الأرض والمستوى العميق. وهكذا، كان مفتوحا دائما، غير مغلق على تفسير واحد لمعنى. هذا ما صوره المفكر الجزائري – محمد أركون – التي يمكن أن توضح اتساع المعنى الوارد في القرآن الكريم، كما نقل قريش شهاب في كتابه Membumikan Al-Qur'an, 2011.

لبدء هذه المناقشة، ينبغي أن نلاحظ أن في مناقشة المعانى (الدلالات). كانت خصائص النصوص أكثر أهمية في الدراسات النقدية المعاصرة هو الفرق بين النص الطابع النقي بالمعلومات مع النص الأدبي. ففي النص الطابع بالمعلومات بحتة، النص يعتمد فقط على جانب الوضوح كمقياس لانخفاض وارتفاع معنى الآية. ومع ذلك، في طبيعة الأدب، لا تختلف فقط من نصوص أخرى (وضوح المعنى)، والنص هو أيضا قادرة على الاختلاف مع نفسه (ناصر حامد: ٢٠٠٢).

ومثال ذلك، –كيف فرّق وشرح النص نفسه – يمكن أن ينظر إليه في الآيات المكية والمدنية أو الناسخ والمنسوخ. وإذا أخذنا ونتدبر مثل هذه الآيات، سوف نجد أنه بالإضافة إلى معانيه التي لها الثروة المعلوماتية، كان القرآن لديه مرونة خاصة يتولد منها مختلفات من الفهم والتفسير. وبعبارة أخرى – في الحقيقة – أن الأمور التي تسبب وجود الاختلافات في فهم القرآن ليست في اتجاه واحد (من جانب القارئ)، بل من جانب النص ذاته، لأن النص لديه نوع خاص به من آلية يميز نفسه.

فانطلاقا مما سبق، القرآن كمبدأ ومصدر أساسي لا ينبغي معاملته ككائن جماد أمام المسلمين، لأنه –كما أنه يفسر نفسه –، واضح بأن القرآن ليس نصا ثابتا من حيث مضمون معانيه، وبدلا من ذلك يتجلى أن هذا النص هو نص حيوي ديناميكي. ومع ذلك، لا تورط دينامية القرآن في التناقض، ولكن الاختلافات في المعنى وفقا للواقع. في التطوير والتعامل الديناميكي وآليات بُني لنفسه، يمكن أن نبرر أن القرآن المقبل

ليشمل الجانب الظاهر، وهو يغطي أيضا الجانب الباطن. لذلك، في هذ الرسالة، يحاول الباحث توضيح المناقشة الهامة في علوم التفسير، وهي المعنى الظاهر والمعنى الباطن للقرآن؛ ما هو المعنى الظاهر والمعنى الباطن؟ ميف آراء الذهبي وسائر المفسرون عن مفهوم المعنى الظاهر والباطن؟ وما أثرهما على تطور تفسير القرآن الكريم؟ صحة كل فقرة من هذه كلها تستند إلى حجة نقلية وعقلية.

منهج البحث

هذا البحث هو من ضمن البحث النوعي، والبحث النوعي كما قال مايكل قوين بتون ومايكل كوكران هو البحث الذي يهتم بإجابة الأسئلة التي لا تمكن إجابتها بالبيانات الكمية. ويهتم البحث من هذا النوع بمحاولة إجابة الأسئلة من أمثال ''ماذا؟''، ''كيف؟''، ''لماذا؟''. ولكن هذا البحث، ليس البحث النوعي العادي الذي يعتمد كثيرا على الحوار بين الباحث والناس الذين أخذت منهم البيانات، وإنما يدخل هذا البحث من ضمن البحث الذي يعتمد على الكتب والمقالات أي البحث المعتمد على الكتابات، سماه المجتمع الغربي ***literature based research***. وقال البعض إن هذا النوع من البحث يسمى مراجعة النصوص ***(literature review)***. ولكن هناك بعض الفروق، حيث أن الأول أي البحث المعتمد على الكتابات له خطة علمية أكثر من الثاني.

والبحث المعتمد على الكتابات نوعان: البحث المنظم ***(systematic review)*** وسمي أيضا البحث التقليدي ***(traditional review)***. والثاني البحث الكلي ***(comprehensive review)***، وسوف يختاره الباحث هو الثاني أي البحث الكلي.

والموضوع لهذا البحث هو المعنى الظاهر والمعنى الباطن عند الحسين الذهبي في التفسير والمفسورن. هذا الموضوع يدور حول آراء المفسرين عن مفهوم المعنى الظاهر والباطن بما فيه الحسين الذهبي، ثم الدخول إلى تحليل والنقاش حول الموضوع دلاليا. وذلك بإضافة عدة أفكار المتخصصين في هذا المجال.

والمدخل الذي يسير عليه الباحث هو المدخل الاستقرائي ***(inductive approach)*** والبحث الاستقرائي هو البحث الذي يحاول الكشف النمط أو النظام من خلال الملاحظة، وتطوير البيانات والنظريات لهذا المنهج من خلال سلسلة من التحليل.

والاستقراء هو ضد الاستدلال. البحث الاستدلالي يبدأ بالنظريات ثم ملاحظة تطبيق هذه النظريات في الميدان الواقعي. بخلاف ذلك، فالبحث الاستقرائي يبدأ أولا بالملاحظات، ثم التأمل والتفكير للوصول فيما بعد إلى النمط والنظريات (عاقل يورناي: ٢٠٠٨). هذا المدخل ما يقال بالإنجليزية "*bottom-up approach*". رغم أن النتائج التي تأتي من مثل هذا البحث قد يكون غير معين إلى درجة ما.

تكون مصادر بياناتها الأولية كتابات تتعلق بموضوع البحث. وهناك مصادر أو مراجع أساسية وهناك أيضا مراجع ثانوية. ويكون المرجع الأساسي هي كتاب التفسير والمفسرون للحسين الذهبي. أما المراجع الثانوية مأخو من الكتب المتعلقة بالموضوع.

قام الباحث باستقراء تلك الكتابات، وقراءتها قراءة جدية. وبعد أن يتشكل الفهم الصحيح والصورة الذهنية الواضحة عن موضوع البحث، سيقوم الباحث بتحليل هذه المعلومات وتحقيقها، وإضافة عناصر مهمة تسهل الفهم والتصور للقارئ.

بعد أن قام الباحث بقراءة المراجع الأساسية والثانوية، أخذ الباحث المعلومات الهامة التي تتعلق بالموضوع، ثم يقوم بتحليلها وبياتها باستخدام النظريات التي تم جمعها في الإطار النظري.

التعريفات

غالبا، المعنى الظاهر هو المعنى أشاره اللفظ ويفهم من الخطاب العربي. أشار محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون إلى أن ألفاظ القرآن هو البعد الظاهر، أما ما يسمى بالبعد الباطن هو التأويل. ففي المنهج الدلالي – البحث حول المعنى الظاهر والباطن – رأى نصر حامد أبو زيد بأنه تنقسم معاني النصوص الى أربعة حيث كان المعنى الظاهر لا يعد "أوضح المعنى". هذه التقسيمات هي المعنى النصي، المعنى الظاهر، المعنى المؤول/التأويل والمعنى المجمل. معنى النص يقصد به المعنى الواضح أي المعنى والواحد لا تحتوي على المعاني الممكنة الأخرى، كما ورد في قوله تعالى: فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ. ثم، ما يسمى بالمعنى الظاهر هو المعنى الواضح من النص، لكنه يملك إمكانية معنى آخر، ثم يتم تحديد المعنى الراجح، كما في قوله تعالى: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مع أن كلمة "باغ" بمعنى

"التجاوز" يمكن أن تعني أيضا "عدم المعرفة". أما التأويل أو المؤول هو النص الذي يحتوي على أكثر من معنى واحد، ولكن تحديد هذا يعني المعنى الأعمق غير ظاهر اللفظ ويليه الدليل/القرينة، كما ورد في قوله تعالى: وهو معكم أينما كنتم. فكلمة "مع" هنا لا يمكن أن تفسر على أنها التقارب المادي، فإنه يجب نقلها إلى معنى السلطة أو العلم. ثم، المعنى المجمل هو المعنى يمكن أن يكون في بعض الأحيان واضح جدا وفي حين آخر صفته ضمنية، فإنه يتطلب شيء مخفي. ففي هذه الحالة، معنى هذا اللفظ ذو صفة ضمنية.

في كتاب التفسير والمفسرون، كان حسين الذهبي يستشهد بآراء العلماء القدماء عن المعنى الظاهر والمعنى الباطن، منها ما رآه أبو عبيدة وبن نقيب. رأى أبو عبيدة، أن المعنى الظاهر هو الخبر من قصص القرآن الكريم من الأمم القديمة ومحنة يتعرض لها، وفي حين أن الجانب الباطن هو العبر والواعظات والتحذيرات من القرآن الكريم من الأخبار والقصة. وفي الوقت نفسه، كان ابن نقيب يرى أن المعنى الظاهر هو المعنى الواضح للعلماء، والمعنى الباطن هو أسرار المعانى يكتشفها علماء الحقيقة.

تأسيسا على ذلك كله، يؤثر المستوى الدلالي على ظهور الأنماط المعتاد في التفسير منها التفسير الإشاري والتفسير الباطني. لهذين النمطين اتجاه واحد، وهو اكتشاف أسرار المعاني العميق من القرآن الكريم. وعلى الرغم من ذلك، كان قريش شهاب يميز بينهما. رأى قريش شهاب أن الفرق بينهما يقع في وجود وجهة النظر نحو اللفظ أو الكلمة. التفسير الإشاري لا يترك المعنى اللفظي، لكنه أضاف معنى جديدا لهذه اللفتة التي تم الحصول عليها. خلافا عن ذلك، فالتفسير الباطني يترك المعنى اللفظي، بل المعنى وراء اللفظ أو المعنى الإشاري الذي يقع وراء اللفظ. وبعبارة أخرى، فإن المعني اللفظي هو المعنى لأغلب الناس، والمعنى الباطني لأخصّهم.

التأويل الباطني

التأويل عند الباطنية هو صرف الألفاظ عن معانيها الظاهرة، فالظاهر عند الباطنية هو الأمثال المضروبة للمعاني، والباطن هو المعاني الخفية المطلوبة. والتأويل الباطني أمر لا بدّ منه عند الباطنية في فهم الشريعة الإسلامية، فالشريعة عندهم مشتملة على ظاهرٍ وباطنٍ لاختلاف فِطَر الناس وتباين قرائحهم في التصديق، فكان لا بدّ من إخراج النَّص

من دلالته الظاهرية إلى دلالته الباطنية بطريق التأويل، "فالظاهر هو الصور والأمثال المضروبة للمعاني، والباطن هو المعاني الخفية التي لا تنجلي إلاّ لأهل البرهان. فالتأويل في نظرهم هو الطريقة المُؤدية إلى رفع التعارض بين ظاهر الأقاويل وباطنها"(أحمد الخطيب، دون السنة: ٣٠).

قال الباطنية: "للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللبِّ إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب، وباطنه مؤدٍّ إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى: (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (الحديد:١٣) (الذهبي، ٢٠٠٠: ٢٣٢).

وقد اتخذ الباطنية من أمثال الخطابية، الجناحية، المغيرية، العجلية، الشيخية، البابية، البهائية، الإسماعيلية الآغاخانية، فرقة الجمهوريين بالسودان، البهرة والقاديانية التأويل الباطني الذي لا يلتزم بقواعد اللغة ودليل العقل، والشرائط التي وضعها العلماء للتأويل الذي يعذر به. اتخذوا ذلك المنهج وسيلةً لهدم الدين وتحريف أصوله وقواعده، وجعلوه طريقاً يُوصِل إلى إسقاط التكاليف الشرعية. وبلغ الأمر منتهاه عند الإسماعيلية وإخوان الصفا وغيرها من الفرق التي ربطت التأويل بألوان من العلوم الغامضة واشتغال بالحروف والأعداد وأسرارها (عرفان، دون السنة: ٨٠-٨١).

قال الديلمي تحت عنوان "ذكر طرف من تأويلاتهم الباطنية": "اعلم أنَّ مذهبهم في الجملة أنَّه لا بدَّ لكلِّ ظاهرٍ من باطن وهو المقصود في الحقيقة، وهو بمنزلة اللب، والظاهر بمنزلة القشر، وعمّوا بذلك جميع الكلام وأنواع الأجسام، ولم يعتبروا المطابقة بين الظاهر والباطن، بل تأويلاتهم لا تناسب الظاهر من حيث الحقيقة والمجاز، ولم يقتصروا مع ذلك على تأويلٍ واحد، بل أثبتوا تأويلاً للتأويل، وجعلوا للعبارة الواحدة تأويلاتٍ عدَّة حتى ذكر صاحب "المبتدأ والمنتهى" ـ وهو من أكابرهم في الكفر والضلالات والعمى ـ قال: وقد روى عن موالينا عليهم السلام أنَّا نقول الكلمة لها سبعة وجوه. فقال قائل: سبعة وجوه. فقال سبعون. فقال القائل: سبعون. فقال: سبعمائة. فكلّ ما أرتج على قارئه وخفيت معرفته ودقَّت عليه إشارة وكنّا بقربه فليسألنا عنه، أو من يعلم أنَّه

أعلم منه من أبناء جنسه ممَّن يحمل هذا العلم، ومتى كان الأمر على ما ذكره فلا يمكن الوقوف على المراد بالكلام أصلاً والحال هذه، ولعلَّ السائل لو قال له: سبعمائة لقال سبعة آلاف ثم هكذا، لأنَّ تحقيق ذلك قد خرج عن الحصر لعدم المطابقة، وهذا يحقق لكلِّ ذي تمييز أنَّ غرض القوم ما قدَّمناه من الخلع عن الدين، والسلخ عن دين المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:٦٠) (الديلمي، دون السنة: ٣٩.

وقال أبو حامد الغزالي، الصوفي، الأشعري، الشافعي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ): "أنَّهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريف زخرفوها، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطال معاني الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنَّهم لو صرَّحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المتقوِّلين" (الغزالي، ١٩٦٤: ٤٨١–٤٨٢).

وقال العلوي: "اعلم أنَّهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن التصديق عمدوا بلطف الاحتيال ودقة الاستدراج، فصرفوا ظواهر الشرع ونصوصه إلى هذياناتٍ لفقوها، وتهويساتٍ جمعوها وزوَّروها، ليستفيدوا بذلك إبطال معاني الشرع وهدم أساسه، وأوقعوا في نفوسهم أنَّهم لو صرَّحوا بالنفي المحض والتكذيب الصرف لم يثقوا بانقياد الخلق لضلالتهم، ولا بإصغاء سمع أحدٍ إلى جهالاتهم فقالوا: "كلّ ما ورد من التكاليف، والحشر والنشر، وضمائر النصوص، والظواهر، وجميع المعجزات، فهي بأجمعها أمثلة ورسوم إلى بواطن مكذوبة، وأمور محرفة موهومة" (الطغام، ١٩٩٨: ٧١).

مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري

وإذا نحن رجعنا إلى أقوال العلماء التى قالوها فى التفاسير الصوفية وجدناها جميعاً تقوم على حُسْن الظن بهم، وإليك بعضاً منها:

١. مقالة ابن الصلاح:

قال ابن الصلاح فى فتاواه – وقد سُئِل عن كلام الصوفية فى القرآن: "وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسِّر رحمه الله تعالى أنه قال: صنَّف أبو عبد الرحمن السلمى "حقائق التفسير"، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر .قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يُذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس فى الآية المذكورة – يريد قوله تعالى فى الآية [١٢٣] من سورة التوبة: {يأَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ} .. فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومَن يلينا من الكفار، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس."

٢. مقالة سعد الدين التفتازانى:

وقد علَّق التفتازانى على قول النسفى فى كتابه "العقائد": "والنصوص على ظواهرها، فالعدول عنها إلى معان يدَّعيها أهل الباطن إلحاد" فقال رحمه الله: "وسُمُّوا الباطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية".. ثم قال: "وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظوانر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان."

٣. مقالة ابن عطاء الله السكندرى:

نقل السيوطى عن ابن عطاء الله السكندرى أنه قال فى كتابه "لطائف المنن": "اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلَّت عليه فى عُرف اللِّسان،وثَمَّ أفهام باطنة تُفهَم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء فى الحديث: "لكل آية ظهر وبطن"، فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ..فليس ذلك الإحالة، وإنما يكون إحالة لو

قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم."

فهؤلاء العلماء حسَّنُوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التى قالوها فى القرآن على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن، أو على أنها إشارات خفية، ومعان إلهامية، تنهل على قلوب العارفين، وتزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقى لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التى نُقلت عنهم، وهذا عمل حسن وصنع جميل من هؤلاء العلماء، وقد تابعناهم عليه حملاً لحال المؤمن على الصلاح .. ولكن لم يلبث أن تبدد حُسن ظننا بالقوم على أثر تلك المقالة التى قرأناها لابن عربى فى فتوحاته .. وفيها يُصرِّح بأن مقالات الصوفية فى كتاب الله ليست إلا تفسيراً حقيقياً لمعانى القرآن، وشرحاً لمراد الله من ألفاظه وآياته، ويذكر لنا أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية، والمداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر..، وفى هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم – على حد تعبيره – الذين ينكرون عليه وعلى غيره من الصوفية. وإليك ما قاله بالنص لتقف على رأيه الصريح الذى لا مواربة فيه ولا التواء.

التحقق

لبدء المناقشة حول معنى الآيات القرآنية – أعني المعنى الظاهر والمعنى الباطن –، يقتبس الكاتب الآيات التي تنص عليها القرآن في سورة الزخرف فيما يلي:

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٣)

الآية المذكورة تكون أساسا للمتصوفة، بأنه في الحقيقة، كان للقرآن مستويات، وهي المستوى الظاهر والمستوى الباطن. أما المستوى الظاهر هو الذي يقع في طبيعة المادة والمستوي الباطن ليست في طبيعة المادة. وهناك عديد من الآيات الأخرى التي تبين أيضا مستويات المعنى في القرآن الكريم:

قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

وقد ذكر بعض الرواية واضحا عن المعاني الواردة في القرآن الكريم، منها: ما أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلا عن الرسول صلي الله عليه وسلم أنه قال: لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، و لكل حد مطلع. وأخرجه الديلمي من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعا إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال : القرآن تحت العرش، له ظهر وبطن يحاجّ العباد.

ظاهر الأية

استنادا إلى الأمثلة المذكورة، فلإعادة توضيح فهمنا المتعلقة بظاهر المعنى وباطنه، ينقل الكتاب بعض الأمثلة منها ما نفهم من سورة الرحمن: وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧). في هذه الآية، فإن كلمة "وجه" تعني الوجه. ومع ذلك، هذا يخالف للآية التي تبين بأن الله لا يشبه أي شيء. لذلك، فإن المعنى الأقوى هو الوجه بمعنى الذات.

باطن الأية

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣). فكلمة "مع" التي تحتمل معنى الاشتراك، لا يمكن أن تفسر ظاهرية، لأنه من المستحيل كون الله مع عباده في معنى الظاهر. ولذلك، ينبغي أن تفسر كلمة "مع" باطنية في الاعتبار من أجل فهم القصد. هذا النوع من الفهم هو مايؤدينا إلى التفسير الباطني.

تعميق

في تعميق الحجج العقلانية المرتبطة بالمعنى الظاهر والمعنى الباطن، يحدد الكاتب على مراجعة ذلك من وجهة نظر الفيلسوف العظيم، وهو صدر الدين محمد الشيرازي (٩٧٩ – ١٠٥٠ هـ/١٥٧١ – ١٦٤٢ م). وهو معروف باسم صدر الدين المتألحين (الملا صدرا). كما انه واحد من أفضل الفلاسفة الإيراني، بالإضافة إلى ابن سينا، الذي يعيش في عهد الخلافة الصفوية. في الواقع كان صدرا هو المفكر العرفاني، فكانت طريقة تفسيره أكثر ميلا في هذا الاتجاه. ومع ذلك، منذ أن يعيش الشيرازي، في أخير حياته، أنه قرر تقديم التفسير أكثر شمولا، وهي ليست منحازة على طريقة واحدة فقط. لذلك، يمكن أن نجد في تفسير الملا صدرا العديد من الميزات الأخرى، بما في ذلك التاريخ واللغويات.

في منهجية تفسير الملا صدرا، ينبغي أن يفهم في وقت مبكر لتحليل المعنى الظاهر والباطن بأن العالم الذي نعيش فيه هو في أدنى مستوى من مستويات الجامعة للواقع. من الناحية النظرية، أنه يرى عن طبقات التشكيك، وهو ما يفسر توحيد الواقع مرة واحدة على تنوع الواقع نفسه على أساس مستواها الطبيعي .عادة يمكن أن نفهم هذا المفهوم من خلال مفهوم الوجود التي حقيقته واحد، ولكن –وفقا– على مستوياته ذو اختلافات في درجة من أبسطها إلى أكثرها. من أجل ذلك، فإنه يقسم الواقع إلى عالم المادة أو المادية، غير مادية أو الخيالية، والفكرية أو فوق الخيالية (Shirazi, 2004).

استنادا إلى البيان السابق، يطبق الملا صدرا نفس الشيء على النصوص المقدسة من القرآن الكريم التي يعتقد يمثل الحقيقة المطلقة. وبسبب ذلك، فنص القرآن الكريم بالإضافة إلى ما نراه ونقرأ في هذا العالم، لديها وقائع في المستوى الأعلى، بدءا من المستوى الخيالي إلى ما فوق المستوى الخيالي. قرر الملا صدرا بتعيين الشروط الخاصة لأن يكون الشخص صالحا كمفسر esoteris للقرآن. ووفقا له، بالإضافة إلى الرؤية الباطنية والقدرة على كشف والتقاط المعنى، لا بد أن يكون المفسر متقنا في العلوم مثل علم اللغة والشريعة الإسلامية لأن يُفهم أنّ آية واحدة مع آيات أخرى ليست متناقضة. على سبيل المثال، عند تفسير معنى النور في سورة النور. ووفقا لصدرا، فلفظ "النور" ليس بمعنى "الضوء" كما نفهم يوميا.

أبعد من ذلك، فإن النور هو اسم من أسماء الله الحسنى. هو الذي – بهذا الاسم العظيم – يضيء نوره وتحقيق الوقائع مع إيجاد ماهيتها. وفقا لصدرا، "النور" يمكن أن تدرج ضمن معنى المشترك اللفظي، والمعنى الحرفي، والمعنى المجازي. على سبيل المثال، يمكن "النور" أن يفسر بـ "ضوء القمر، ضوء المصباح، ضوء العقل، ونور الإيمان، بل نور التقوى. يبقى معناها واحد وليس متناقضة، فقط يتحدثون بلغة مختلفة، مناسبة للمستوى الناسوتي والملكوتي. وهذا يعني أن النور لا يمكن تعريفها من خلال مظاهرة (البرهان). وهو واقع غير مركب (بسيط) الذي ليس لديه جنس وتفاضل (diferensia). لذلك، يفصّل الملا صدرا معنى النور في التدرج، من الأسفل إلى الأعلى، مع أن حقيقة النور واحد، ولكن كثافته مختلفة.

وأخيرا، كما أن أعيننا لا تستطيع رؤية ضوء ساطع للغاية، كذلك حقيقة النور (نور علر نور) لا يمكن أن "ينظره " ليس لأنه غير واضح كما مثل الظلمات، لكن لأن الضوء على ذاته تعالى في نهاية الضوء. يقول الملا صدرا، "ضوء هذا العالم يمكن أنينفد لكون كثافة خفيف جدا، وكيف كون نور الفكر الذي يقع في غاية الكثافة؟

ولهذه الغاية، النهج العقلاني عن المعنى الظاهر والمعنى الباطن عند صدرا يمكن تلخيصه إلى منهجين هما: **أولا**، أن آية واحدة مع آيات أخرى في القرآن ليست متناقضة. لذلك، من خلال المنطق، عندما يقوم شخص أن يبحث عن التناسب بين آية واحدة مع غيرها من الآيات، انه سينال معنى جديدا منطقية. حينذاك، قد قام الشخص بالدخول من البعد الظاهر إلى البعد الباطن. وهذا يتفق مع الرأي القائل بأن الظاهر هو الاعتبار عن الباطن النازل، أما الباطن هو الاعتبار عن الظاهر المرتفع.

ثانيا، أنه من أجل الحصول إلى المعنى الباطن لابد من أن يقوم بتزكية النفس، وذلك باتكشاف من خلال قلبه السليم الطاهر ويقوم برحلة روحية.

المعنى الباطني والخطاب القرآني

بنية الخطاب القرآني تظلّ مسألةً بالغة الأهمية، من حيث إنّها هل هي بنية رمزية أم بنية عرفية جرى فيها المتكلّم على وفق القوانين العقلائية في التفاهم والتفهيم والمحاورة، أم لغة خاصّة لا تتصل بأيّ من هذه اللغات المطروحة في الدراسات اللغوية والأدبية واللسانية والهرمنوطيقيّة. من هنا تأخذ نظرية البطون دوراً أساسيّاً في محاولة اكتشاف بنية النصّ القرآني؛ لأنّ بعض تفاسير مفهوم البطون تربط النص القرآني بإشارات غير معتادة في الحياة البشر ية في مجال التفهيم والتفاهم. وهذا ما يؤسّس لبنية خاصّة في هذا النص.

والذي يفهم من المعنى اللغوي لكلمتي: بطن وباطن هو الشيء الذي فيه قدر من الخفاء بحيث لا يكون ظاهراً جلياً، فهناك خفاء وستر وحاجة لفعل شيء كي يكشفه. وعندما نضيف كلمة البطن إلى القرآن الكريم فإنّ المعنى اللغوي والعرفي سيعطينا مفاداً عاماً وهو أنّ القرآن يحتوي معاني لا تظهر للناس بمجرّد قراءته بتمامها، بل قد تحتاج بعض المعاني إلى تأمّل وتدبر ومقاربة ومقارنة بين نصوصه وآياته الشريفة، وليس في المعنى اللغوي أيّ مضمون لكلمة الباطن يتعدّى هذا الإطار العام لمفهوم البطون القرآني.

وإذا سلّمنا بأنّ للقرآن بطوناً انطلاقاً من وجود الحديث الشريف في هذا المجال أو انطلاقاً من أيّ دليل متقدّم، عدا اشتمال القرآن على تمام العلوم والمعارف، فهل تعني هذه النظرية ما يُطرح في بعض الأوساط من البطن الذي لا يخضع للظهر ولو من خلال مروره عبره؟ وهل يعني ذلك أنّ ميزان اكتشاف البطن ليس ميزاناً عرفياً أيضاً؟ وهل حقاً لا تعرف اللغة العرفية العامّة شيئاً عن الظهر والبطن؟ وما معنى الظاهر والباطن وفقاً لما تقدّم؟ وهل الظاهر والباطن بعدان معرفيان ايبستميان أم أنّهما بعدان وجوديان أنطولوجيان؟

للجواب عن هذه الأسئلة طرح السيد فضل الله عدة احتمالات وآراء وفرضيات تبدو فيما يلي:

١. فرضية المعنى المقصود المارن للكلام، مقولة الباطن المنفصل
٢. فرضية تعدّد المصداق، نظرية البطون التأويليّة
٣. فرضية الدلالات الالتزامية، الانفتاح على المفهوم النسبي للبطون
٤. فرضيّة المعنى بالتناسب مع مستوى العقل الإنساني
٥. فرضية تعدّد البطون بتعدّد النزول
٦. فرضيّة دلالات ذوات الحروف والكلمات في البطون القرآنية
٧. فرضية العلامية والإشارية في الدلالات الباطنية
٨. البطون القرآني وثنائية الإخبار والاتعاظ، دائرة القصص القرآني
٩. البطون وثنائية اللفظ والمعنى
١٠. فرضيّة الإجمال في تفسير البطون القرآنية
١١. البطون وفرضية استعمال اللفظ في أكثر من معنى
١٢. فرضيّة إرادة الإشارة لدقة المعاني القرآنية
١٣. البطون وثنائي المحكم والمتشابه، نظرية الشريف الرضي
١٤. نظرية البطون الوجودية، القراءة العرفانية
١٥. البطون وثنائي العبور والاستيحاء

كانت هذه خمس عشرة فرضية طرحت في التراث الإسلامي وفي الفكر الإسلامي المعاصر لتفسير مقولة البطون القرآنية، وقد تبين أنّ الفرضيات المستبعدة ـ ولو نسبياً ـ من بينها هي الفرضية الأولى (تداعي المعاني حال الكلام في ذهن المتكلم)، والفرضية الخامسة (النزول المتعدّد بعدد البطون)، والفرضية الثامنة (العبرة من القصص الماضية)، والفرضية التاسعة (الظاهر هو اللفظ والباطن هو المعنى)، والفرضية الثالثة عشرة (المحكم والمتشابه).

وأما الفرضيات الممكنة، فبعضها ينسجم أو فيه قابلية الانسجام مع عرفية اللغة، مثل الفرضية الثانية (نظرية المصاديق)، والفرضية الثالثة بناء على وجود عدد معقول من اللوازم، والفرضية الرابعة (تجريد المعاني وإرادة الجامع الكلي وما يتناسب والعقل الإنساني)، والفرضية الثانية عشرة (الكناية عن دقة المعاني) على بعض التقادير، والفرضية الخامسة عشرة (مقولة العبور والاستيحاء).

وبعضها الآخر يستدعي لغةً ما فوق عرفية، مثل: الفرضية الثالثة بناء على لا تناهي المداليل الالتزامية أو كثرتها بحدّ غير معقول عادة في الممارسة البشرية، والفرضية السادسة (الأسرار في ذوات الأحرف)، وإلى حدّ ما الفرضية الحادية عشرة (استعمال اللفظ في أكثر من معنى)، والفرضية الثانية عشرة (الكناية عن دقة المعاني) على بعض التقادير، والفرضية السابعة (الإشارية) على بعض التقادير أيضاً، والفرضيّة الرابعة عشرة (البطون الوجودية). وبعضها لا يفيد شيئاً، كالقول بالتشابه والإجمال كما هي الفرضية العاشرة.

على خطّ آخر، لاحظنا أنّ النظريات المطروحة حول البطون القرآنية يمكن تصنيفها ضمن إطارين:

الأوّل: إطار ثنائي الوجود والمعرفة، حيث رأينا أنّ أغلب النظريات والفرضيات المطروحة هي نظريات معرفية؛ لأنّها ترى الظاهر والباطن مراتب للمعرفة، وهذا يعني أنّ الظهور والبطون درجات للمعرفة، فعندما نقول بنظرية اللوازم فهذا يعني أنّ الباطن هو معرفة لا تأتي للوهلة الأولى وإنّما يحتاج الوعي الإنساني للمرور بمرحلة معرفية أولى هي الظاهر للوصول إلى المرحلة المعرفية الثانية التي هي الباطن.

وهذا على خلاف الحال في نظرية العرفاء، فإنّ الظاهر والباطن فيها رتبٌ وجودية وليست درجات معرفية، فباطن القرآن رتبة وجودية أرقى من الرتبة الوجودية الظاهرية له. من هنا يمكن تقسيم الموقف الإسلامي من مقولة الظاهر والباطن إلى قسمين: تيار معرفي، وآخر وجودي.

الثاني: إطار ثنائي اللغة العرفية العقلائية والمافوق عرفية وعقلائية، حيث وجدنا من خلال ما تقدّم أنّ بعض النظريات التي طرحت تنسجم مع اللغة العقلائية، ولا تفرض لغةً ما فوق عقلائية أو وضعاً ما فوق عقلائي، فيما رأينا أنّ بعض النظريات الأخرى تفرض هذا الوضع، بل وتعتبره حجر الزاوية في تفسيرها لفكرتي الظاهر والباطن.

خلاصة

كخلاصة هذه المقالة يمكننا أن نستنتج عدة قضايا هامة تتعلق بالمعنى الظاهر والمعنى الباطن فيما يلي:

أولا، أن المعنى الظاهر والباطن في القرآن هو ضرورة كنص دينامي، وأن القرآن تؤثر كثيرا لظهور مجموعة متنوعة من التفسير بدلا من المفسرين أنفسهم.

ثانيا، أن الماهية التي تنتمي إلى المعنى الظاهر هو معنى واضح (معنى النص) وتميل إلى أن تكون أقوى، في حين المعنى الذي ينتمي إلى المعنى الباطن هو مفيد ضعيفة، ولكن يتم اختياره لوجود الدليل وهذا يعني أنه ليس من الواضح، ما لم تكن هناك قرينة.

ثالثا، واضح جدا بأننا نري على أن دليل النص أو العقل كلاهما يصدقان بوجود المعنى الظاهر والمعنى الباطن.

رابعا، أنّ النهج الذي سار عليه السيد فضل الله حول الخطاب القرآني كان هو النهج الأقرب لقواعد الفهم القرآني ومعايير التفسير الإسلامي، ولأساسيات التفسير عند كبار المفسّرين وعلماء الفقه والأصول، وإذا كانت بعض كلماته توحي برفضه فكرة البطون، فإنّ هذا الرفض منه ليس لأصل الفكرة بقدر ما هو للمعنى السائد لهذه الفكرة، وهو البطون التي تتعالى عن اللغة العرفية والعقلائية وتتخطّى قواعد النهج العربي في البيان والفهم والتفهيم.

المراجع

Abu Zaid, Nasr Hamid. *Tekstualitas Al-Qur'an: Kritik terhadap Ulumul Qur'an*. Yogyakarta: LkiS, 2002.

Comerasamy: *Literature Based Research Methodology,* University of Brighton, UK, published on May 10, 2012, in slideshare.net

Khamanei, S.M. *The Qur'anic Hermeneutics of Mulla Sadra*. Tehran: Sadra Islamic Philosophy Research Institute, 2006.

Nouria Brikci and friends: *a Guide to use qualitative research methodology,* Medecines sans frontiers, London School of Hygiene and Tropical Medicine UK, February 2007.

Salim, Fahmi. *Kritik terhadap Studi Al-Qur'an Kaum Liberal*. Jakarta: Perspektif, 2010.

Shirazi, Mulla Sadra. *On the Hermeneutics of the Light Verse of the Qur'an*. London: ICAS, 2004.

صادق عسكري. *المعايير المنهجية والنقدية المطلوبة لنشر المقالات العلمية*. مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصيلة محكمة، العدد التاسع عشر، ربيع ١٣٩٣ هـ ٢٠١٤ – م.

الطغام. *الإفحام لأفئدة الباطنية*، ط ١. الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩٨ م.

عرفان عبد الحميد فتاح. *نشأة الفلسفة الصوفية*. بيروت: دار الجيل.

الغزالي. *فضائح الباطنية*. القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٤.

محمد أحمد الخطيب. *الحركات الباطنية في العالم الإسلامي*. مكتبة الأقصى.

محمد بن الحسن الديلمي. *بيان مذهب الباطنية وبطلانه*. ط. إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان.

محمد حسين الذهبي. *التفسير والمفسرون ج ٢*. القاهرة: مكتبة الوهبة، ٢٠٠٠.